موسكو وأفريقيا تطلقان شراكة المستقبل

(**مجلة الشروق**، دار الخليج، الشارقة، ٣٠ أكتوبر ٢٠١٩)

د. نورهان الشيخ

أحتضنت مدينة سوتشى أول قمة روسية أفريقية فى التاريخ يومى ٢٣ و٢٤ أكتوبر، وفى مشهد استثنائى توافد رؤساء معظم الدول الأفريقية ولبت دول القارة دعوة موسكو فى دلالة واضحة على تلاقى الإرادة السياسية المتبادلة لدى الطرفين لإطلاق تعاون استراتيجى بينهما فى مختلف المجالات. إن روسيا تحتاج إلى إفريقيا بقدر ما تحتاج الأخيرة لروسيا، فروسيا تحتاج إلى تنويع اقتصادها وتجاوز هيمنة صادرات الطاقة على الدخل القومى الروسى، الأمر الذى يقتضى فضاء اقتصادى واسع يستوعب ضخامة المنتجات والتكنولوجيا الروسية التى عجز الفضاء السوفيتى السابق عن استيعابها لمحدوديته. يتزامن هذا مع حاجة القارة السمراء لشريك جاد موثوق به لدفع التنمية الشاملة بها واللحاق بركب القارة الآسيوية التى تحررا معا من الاستقلال، وأنطلقت الأخيرة محققة قفزات تنموية وأجيال متتالية من النمور الاقتصادية الآسيوية، فى حين لاتزال الدول الأفريقية فى نقطة ليست ببعيدة عن لحظة الاستقلال.

من ناحية أخرى، يمثل التنسيق الروسى الأفريقى داخل الأمم المتحدة أهمية كبيرة للطرفين حيث يعد الثقل التصويتى للدول الأفريقية ظهير مهم لروسيا لاسيما فى وقت تحتدم فيه المواجهة مع الغرب، ويسعى الأخير للنيل من موسكو فى المحافل الدولية. وقد بدا ذلك واضحاً عند التصويت لإدانة روسيا على خلفية الأزمة الأوكرانية حين امتنعت غالبية الدول الأفريقية عن التصويت، وكان من بين الدول العشرة التى صوتت لصالح روسيا أثنين من الدول الأفريقية. وفى المقابل تحتاج الدول الأفريقية إلى الفيتو الروسى لمواجهة الضغوطات الغربية، وسبق وأن استخدمت موسكو الفيتو على مشروع قرار فى مجلس الأمن بفرض عقوبات اقتصادية على زيمبابوي عام ٢٠٠٨، وكان ذلك عاملاً فى دفع التعاون بين البلدين. وأكد الرئيس بوتين خلال القمة إن "روسيا كعضو دائم في مجلس الأمن الدولي تعتزم مواصلة المشاركة بنشاط في تطوير المنحى الاستراتيجي الدولي، والتدابير العملية لتعزيز السلام والاستقرار في إفريقيا، وضمان الأمن الإقليمي"، وهو ما تأمله وتطلع إليه دول القارة.

إنطوت القمة على دلالة أخرى هامة تتعلق بمستقبل القارة الأفريقية ورفض سياسات الهيمنة والاستعلاء التى انتهت ولم يعد لها مجال لا فى القارة الأفريقية ولا فى غيرها، فالعالم الآن يقوم على بناء الشراكات ذات العائد لكل الأطراف، والاحترام المتبادل للمصالح والخصوصيات الثقافية، وروسيا على وعى تام بذلك، ولذا فإن اقترابها من أفريقيا يأتى على أسس جديدة تنطلق من منظور تشاركى وتنموى. ولعل ترحيب الدول الأفريقية بالدعوة الروسية يعود فى جزء كبير منه للقراءة الروسية الدقيقة لاحتياجات القارة الأفريقية بهدف بناء تعاون وثيق يخدم مصالح الطرفين الروسى والأفريقى، فالقارة تريد شراكة لا هيمنة وتنمية لا استغلال لطاقاتها وهو ما تطرحه روسيا. وقد مثل إعلان الرئيس بوتين شطب ديون بقيمة ٢٠ مليار دولار كانت مستحقة على الدول الإفريقية لصالح روسيا خطوة هامة لتأكيد هذا النهج الروسى، هذا إلى جانب ما عكسته القمة من اهتمام روسى بالتنمية الشاملة فى أفريقيا وذلك عبر مدى واسع من مجالات التعاون تشمل البنية الأساسية مثل الاسكان وشبكات السكك الحديدية، والبنية التكنولوجية و"الرقمنة" لتطوير الأداء الحكومى، والنهوض بقطاع الصحة والتعليم وتشجيع الابتكار، والتعاون فى المجال العلمى.

إن إفريقيا ساحة أساسية للتنافس الدولى والإقليمى، وذلك بالنظر لما تتمتع به من آفاق واعدة للنمو وما تذخر به من ثروات طبيعية ضخمة لم تُستغل بالكامل بعد، فالقارة أصبحت من أسرع المناطق نمواً فى العالم، ويبلغ متوسط معدل النمو بها حوالى ٥%، ومن المتوقع إن تصبح حوالى ١٠ اقتصادات أفريقية ضمن الأسرع نمواً فى العالم، وبحلول عام ٢٠٥٠ يمكن أن تصبح إفريقيا واحدة من الاقتصادات الرئيسية في العالم. كما تعتبر أفريقيا سوق واسعة للتكنولوجيا بمختلف أنواعها، ولمدى غير محدود من السلع والمنتجات حيث يتجاوز عدد سكانها المليار نسمة، غالبيتهم من الشباب، الأمر الذى يمنح القارة وفرة فى الأيدى العاملة والطاقات المنتجة، هذا فضلاً عن مخزونها من الموارد الطبيعية البالغ ٣٠% من إجمالى موارد العالم. وتتميز روسيا عن غيرها من القوى الكبرى المتكالبة على أفريقيا برصيدها الإيجابى الضخم فى القارة، فروسيا ليس لها ماضى استعمارى فى أفريقيا بل على العكس كان لها دور أساسى فى تحرير دول القارة من الاستعمار ودعم حركات التحرر الوطنى التى كانت تموج بها القارة الأفريقية فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى، وقامت بتقديم المساعدات العسكرية والتقنية للدول الأفريقية حديثة الاستقلال. وخلال الحرب العالمية الثانية ساند الاتحاد السوفيتي أثيوبيا ضد العدوان الإيطالى، وتوجه بعض الروس الى اثيوبيا للدفاع عنها. وفى الوقت الذى كانت واشنطن تعتبر نيلسون مانديلا "إرهابى"، كان الاتحاد السوفيتى يدعم المؤتمر الوطنى الأفريقى قائد النضال ضد التمييز

العنصرى، والحزب الحاكم حالياً. وأطلقت موسكو اسم، باتريس لومومبا، قائد حركة التحرر فى الكونغو الذى تم إعدامه بوحشيه عام ١٩٦١، على إحدى الجامعات، وعلى مدى ثلاثة عقود وحتى عام ١٩٩٢ كانت جامعة لومومبا من أكثر الجامعات المرموقة في روسيا وتخرج منها أجيال من القيادات الأفارقة العاملة فى مجال السياسة الخارجية.

فقد لعب الاتحاد السوفيتى دور بارز فى إعداد وتدريب القيادات الأفريقية فى مختلف المجالات، ومع انتهاء الحقبة السوفيتية بلغ إجمالى من تلقوا تعليمهم فى الجامعات والمعاهد العسكرية السوفيتية ٥٠ ألف من المدنيين والعسكريين، منهم رئيس جنوب أفريقيا السابق (جاكوب زوما)، ورئيس أنجولا الذى حكم ما يقرب من ثلاثة عقود (خوسيه دوس سانتوس)، ورئيس موزمبيق السابق (أرماندو جويبوزا) والرئيس الحالى (فيليب نيوسي)، إلى جانب أكثر من ٢٠٠ ألف من الأفارقة تم تدريبهم فى بلدانهم على أيدى السوفييت. ويعطى هذا البعد التاريخى خصوصية لروسيا ويجعلها طرفاً دولياً أكثر قبولاً لدى دول القارة، فروسيا لم تبدأ علاقاتها بأفريقيا السمراء من الصفر، كبعض القوى الأخرى، وإنما من رصيد ضخم موروث من الحقبة السوفيتية. فضلاً عن أن التخوف من حضور طاغى مهيمن، كما هو الحال فيما يتعلق بالصين، غير وارد فى الحالة الروسية التى لا تمتلك هذا الفائض البشرى الضخم الذى يمكن ضخه فى أفريقيا.

فى هذا السياق، نجحت القمة فى وضع حجر الأساس لشراكة استراتيجية ممتدة بين روسيا وأفريقيا فى مختلف المجالات، وهو ما أكده الرئيس بوتين في البيان الختامي للقمة حيث أشار إلى أن "القمة فتحت صفحة جديدة للتعاون والعلاقات بين روسيا والدول الإفريقية". وقد احتل التعاون الاقتصادى والتقنى أولوية واضحة خلال القمة وفى مجمل النتائج التى أسفرت عنها حيث شارك فيها أكثر من ستة آلاف شخص يمثلون أكثر من ١٠٤ دولة وكيان اقتصادى، وبلغت حصيلة الصفقات المبرمة على هامش القمة ١٣ مليار دولار. من أبرزها اتفاقية لإنشاء آلية مالية لتحفيز وتسهيل العلاقات التجارية بين المصدرين الروس والشركاء الأفارقة، واتفاقية بين المركز الروسى للتصدير وبنك جمهورية غانا للاستيراد والتصدير لتشجيع الصادرات الروسية، ومذكرة تفاهم بين اللجنة الاقتصادية التابعة للاتحاد الاقتصادى الأوراسى الذى تقوده روسيا ويضم عدد من دول الفضاء السوفيتى السابق ومفوضية الاتحاد الأفريقى، وذلك دعماً لما أعلنه الرئيس بوتين حول سعى روسيا مضاعفة التبادل التجارى مع أفريقيا، والبالغ ٢٠ مليار دولار عام ٢٠١٨، فى غضون سنوات قليلة قادمة. أيضاً تم توقيع اتفاق حول إنشاء صندوق استثمارى مشترك بقيمة ٥

مليار دولار لدعم المشروعات المشتركة بين الجانبين، ومذكرة تفاهم لمد أنابيب نقل النفط في الكونغو، وأخرى لمشاركة شركة "زاروبيجنفت" الحكومية الروسية في تطوير استخراج الغاز من الكتلة البحرية للجرف المصري جنوب شرق رأس العش شمال الغردقة على البحر الأحمر.

يضيف ما تقدم الكثير للتعاون القائم بين روسيا وأفريقيا، فهناك أكثر من ٣٠ شركة روسية تسهم في مجال التنمية وتطوير استغلال الدول الأفريقية لمواردها الطبيعية في قطاعات التعدين والطاقة، يعمل معظمها في جنوب أفريقيا، وأنجولا، والكونغو الديمقراطية، وناميبيا، ونيجيريا، وبتسوانا، وكوت ديفوار، وجانا، وتوجو إلى جانب دول شمال أفريقيا خاصة مصر والجزائر. ويستحوذ قطاع التعدين على شق كبير من التعاون التقنى بين روسيا وأفريقيا السمراء، ومن أبرز المشروعات فى هذا الخصوص مشاركة الشركات الروسية في استخراج الماس واليورانيوم في ناميبيا، التى تتمتع بثامن أكبر احتياطى عالمى من اليورانيوم، وبناء مفاعلات نووية بجنوب إفريقيا، لتكون الأخيرة بحلول ٢٠٢٣ موطن أول محطة نووية تعتمد على التكنولوجيا الروسية في القارة الإفريقية، يليها محطة الضبعة فى مصر. والتعاون بين شركة "غازبروم" وشركة النفط الوطنية النيجيرية لإنشاء خط أنابيب لنقل الغاز من نيجيريا عبر الصحراء الكبرى إلى الجزائر، ثم عبر البحر المتوسط إلى أوروبا. وتوقيع عقد لاستغلال النفط فى أوغندا بقيمة ٤ بليون دولار فى فبراير ٢٠١٥، وتؤهل الاكتشافات الحديثة للنفط فى أوغندا الأخيرة لتصبح دولة مؤثرة فى القارة، وتفتح آفاق رحبة للتعاون مع روسيا فى هذا المجال.

كما حظى التعاون الأمنى باهتمام ملحوظ من الجانبين حيث ناقشت القمة التعاون فى مجال مكافحة الارهاب وفى مجال الأمن السيبرانى والأمن الحيوى فى مواجهة الأوبئة العالمية. وعلى هامش القمة بحث زعماء مجموعة الساحل الإفريقي الخمس مع الرئيس بوتين نشر مستشارين عسكريين روس بالمنطقة، وتضم المجموعة التى تأسست عام ٢٠١٤ مالي، والنيجر، وتشاد، وموريتانيا، وبوركينا فاسو، وتهدف إلى مواجهة التحديات الأمنية في منطقة الساحل الإفريقي، وأكد الرئيس بوتين على خطورة التنظيمات الارهابية فى أفريقيا وضرورة تنسيق الجهود للقضاء عليها. وإلى جانب التعاون الهام مع مصر فى هذا المجال استطاعت روسيا تطوير تعاون أمنى ومعلوماتى مع عدد من دول أفريقيا السمراء وفى مقدمتها جنوب أفريقيا، وأطلق الجانبين نظام الأقمار الصناعية المعروف باسم مشروع كوندور، الذى يوفر المراقبة للقارة الأفريقية بأسرها، ويخدم الاستخبارات العسكرية الروسية ونظيرتها فى جنوب أفريقيا. كما تشارك روسيا فى قوات

حفظ السلام فى عدد من الدول الأفريقية منها الكونغو الديمقراطية وكوت ديفوار وأثيوبيا وأريتريا والسودان وجنوب السودان والصحراء الغربية، وتقوم بتدريب رجال الشرطة فى أكثر من ١٨ دولة أفريقية على عمليات حفظ السلام، وقدمت دعم مادى لصندوق حفظ السلام التابع للاتحاد الأفريقى.

على صعيد أخر، ورغم عدم تخصيص جلسة خاصة بجدول أعمال القمة لمناقشة التعاون العسكرى بين الجانبين، إلا إنه كان مطروحاً وبقوة، فقد أعرب الرئيس الروسي عن استعداد بلاده مواصلة تدريب العسكريين والعاملين بهيئات حماية القانون في البلدان الإفريقية لتعزيز الفعالية القتالية للقوات الإفريقية، وأشار إلى وجود تعاون فعلي مع دول إفريقية في المجالين العسكري والعسكري التقني، وأن عسكريين من ٣٠ دولة إفريقية يدرسون في جامعات وزارة الدفاع الروسية. كما وُضع نموذج كامل للمقاتلة "ميج ٣٥" فى مدخل المنتدى، ونظمت الشركات الروسية المعنية بتصدير الأسلحة معرضاً على هامش القمة تضمن عرض مجموعة من المعدات العسكرية منها الصواريخ المضادة للطائرات من طراز "إس-٤٠٠" و"أنتيي-٢٥٠٠"، وأنظمة الصواريخ Buk-M2E متوسطة وقصيرة المدى، وأنظمة مراقبة المجال الجوي مثل نماذج الرادار Casta-2E2، Podlet-E، Gamma-S1ME، 55Zh6UME و٥٥ N6-TE، 1L125E بالإضافة إلى نموذج رادار ١ 1e-1122l واسع النطاق.

كذلك، كشف رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى، فوستان أرشانج توادیرا، فى أعقاب القمة أن بلاده تدرس إمكانية إقامة قاعدة عسكرية روسية على أراضيها، ستكون أول قاعدة روسية فى أفريقيا، وكان توادیرا قد أشاد خلال كلمته فى القمة بالتعاون العسكرى مع روسيا وأن موسكو تساهم بفاعلية في إعداد عسكريي بلاده وتدريب كوادر القوات المسلحة والشرطة، وتحديث الجيش وتلبية جميع احتياجات بلاده من الأسلحة. ومنذ ٢٠١٨ تتلقى إفريقيا الوسطى أسلحة روسية بعد تخفيف الحظر المفروض عليها نتيجة الحرب الأهلية التي شهدتها. وأعرب رئيس ناميبيا حاج غينغوب لنظيره الروسي عن اهتمام بلاده "بتلقي المساعدة من مستشارين عسكريين روس." وبالتزامن مع القمة أيضاً وصلت قاذفات إستراتيجيتان روسيتان من طراز تو مئة وستون إلى مطار وتر- كلوف بجنوب إفريقيا في أول تحليق لمثل هذه الطائرات إلى أقصى الجنوب.

وأشار مدير شركة "روسوبوروناكسبورت" أن لدى روسيا عقود موقعة ومدفوعة بقيمة ١٢ مليار دولار، وأن موسكو تتعاون عسكرياً مع ٢٠ دولة إفريقية فى هذا المجال، وأنه خلال العام

الجارى سيتم تسليم معدات لتسع دول افريقية منها رواندا وموزمبيق وأوغندا وأنجولا. وأن حوالى ٨٠% مما تشتريه إفريقيا هي معدات جوية تتضمن مروحيات قتالية وطائرات وأنظمة دفاعات جوية تور وبوك واس-٣٠٠. وأعلن رئيس مجلس إدارة شركة "راشن هيليكوبترز" أن أكثر من ٩٠٠ مروحية تنتجها الشركة في دول إفريقية ويمثل هذا ربع عدد المروحيات في القارة.

وإلى جانب مصر والجزائر اللتان تعتبران من كبرى مستوردى السلاح الروسى، تمثل صادرات الأسلحة الروسية إلى إفريقيا جنوب الصحراء حوالى ٧% من إجمالى الصادرات الروسية من الأسلحة. وتقبل البلدان الأفريقية على الدبابات من نوع "تي- ٥٥"، و"تي- ٧٢" ومقاتلات "سوخوي"، والمروحيات من نوع "أم آي ٨" و"أل آي ٢٤." وقامت روسيا بتوريد روسيا نظام الدفاع الجوي Pantsir-S1 إلى إثيوبيا، وظهرت هذه المنظومة في فبراير ٢٠١٩ خلال عرض عسكري بثه التلفزيون الإثيوبي. ووقعت أنجولا عقداً عام ٢٠١٣، بقيمة تتجاوز المليار دولار، للتزود بمعدات روسية، من بينها مقاتلات سوخوي ومروحيات. وقامت روسيا بتزويد نيجيريا بالطائرات بعد رفض الولايات المتحدة تزويدها بطائرات "كوبرا" عام ٢٠١٤. ووقعت موسكو عقداً مع غانا لتسليم الأخيرة مروحيات بقيمة ٦٦ مليون دولار. كما تبيع روسيا الأسلحة الخفيفة لمالي، ويتضمن ذلك البنادق والمدافع الرشاشة والذخائر، وذلك بمقتضى العقد الموقع بين الجانبين فى سبتمبر ٢٠١٢، بقيمة إجمالية ١٢ مليون دولار، وحصلت أوغندا على مقاتلات من طراز "سو - ٣٠ أم كا ٢" الروسية. ووقعت شركة "مروحيات روسيا" اتفاقية لإنشاء مركز لصيانة المروحيات الروسية في جنوب أفريقيا مع شركة "ديفل أفييشن" الجنوبية الأفريقية، وافتتحت شركة "أورال فاجون زافود" لصناعة الدبابات مركز إقليمي لصيانة الدبابات من نوع "تي-٧٢" في إفريقيا.

لقد أكد الرئيس بوتين خلال القمة على أن تطوير العلاقات الروسية مع أفريقيا أحد أولويات السياسة الخارجية الروسية فى المرحلة المقبلة، وأن روسيا تعتزم تعزيز وجودها في القارة الإفريقية، معتبرا إياها "قارة واعدة". وفى هذا السياق أعلن عن تدشين "منتدى الشراكة الروسية الأفريقية"، والذى سيعقد فى إطاره قمم دورية كل ثلاث سنوات بالتناوب بين موسكو وأحد العواصم الأفريقية، وكذلك آلية تشاورية تجمع وزراء خارجية روسيا والترويكا الأفريقية التى تضم الدولة الرئيس للاتحاد الأفريقى والرئيس السابق والقادم له، وتعقد اجتماعاتها سنوياً لضمان التنسيق المتواصل بين روسيا والقارة.

إن القمة هى خطوة أولى فى استراتيجية روسية متكاملة لتعزيز التعاون والشراكة بين روسيا والقارة السمراء، وسيشهد المستقبل القريب خطوات أخرى جادة تدعم التعاون الروسى الأفريقى فى مختلف المجالات.